

**كتابه "حرب لبنان" يبحث أسباب انفجار الوطن الذي تأسس على تعددية الطوائف
عبد الرؤوف سنو لـ "السياسة" توقعت أننا نتجه إلى السلام لكن
للأسف الانقسام توسع**

الاصطفاف الحالي يحمل طابعاً مذهبياً وطائفيّاً الطوائف أقوى من الدولة في لبنان

حرب لبنان كانت المختبر التاريخي والاجتماعي العامل الخارجي استغل تناقضات المجتمع اللبناني
والسياسي لتناقضات المجتمع للتلاعب بالتوازنات الداخلية
نحن قبائل نتعاش على حيز جغرافي الحرب طرحت شرعية الكيان اللبناني والولاء للوطن

بيروت - ليندا عثمان

"حرب لبنان" 1975-1990 وثقها وبحث في تداعياتها وإشكالياتها، أسبابها ومسبباتها، أستاذ التاريخ الباحث في التاريخ المعاصر والمؤلف الدكتور عبد الرؤوف سنو، وصدرت في مجلدين ضخمين، الأول في "872" صفحة، والثاني في 936 "صفحة"- عن الدار العربية للعلوم.

يعالج هذا الكتاب بمجلديه وفق المؤلف: محطات أساسية في مسيرة لبنان التي أوصلته إلى الحرب في عام 1975، والعوامل والمسببات التي دفعت بأبناء الوطن الواحد إلى التقاتل وأن يرفعوا السلاح في وجه بعضهم، وكيف أن ميزان التعايش الطوائفي مال هذه المرة إلى النزاع. كما يعالج المتغيرات التي أصابت لبنان نتيجة الحرب والذي تأسس على مبدأ تعددية طائفية، وذلك انطلاقاً من المواطن نفسه، مروراً بالنظام السياسي، والعلاقات بين الطوائف، وسيادة الدولة على مجتمعها وعلى قرارها. والمعروف أن الحروب والثورات والانتفاضات كظواهر اجتماعية، تؤثر عادةً في البنية المعرفية، مقرونة بالتطورات السياسية والاقتصادية والأمنية، بدورها في القيم الاجتماعية والمعايير والعادات، والسلوك وأنماط العيش. فينتج عن ذلك انحلال العقد الاجتماعي بين الشعب والحكومة ويجري تغييب السلطة المركزية. وفي ظل تفكيك الدولة (الاستيلاء على إرادتها وسيادتها ووظيفتها ومواردها ومراقبتها الخ...) وإسقاط عنصر المجتمع

المدني، وتهميش قواه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية... (الطبقة الوسطى أساساً) برزت قوى اجتماعية جديدة على الساحتين السياسية والعسكرية (الأحزاب والميليشيات وقوى الأمر الواقع) تسوق قيمها ومعارفها من خلال وسائل إعلامها وممارساتها، فتأثرت بذلك الحياة الاجتماعية بأشكال الصراع المتحرك، وفي ظل هذه القيم والمعايير والبنى المعرفية الجديدة، فسدت الحياة العامة من قمة الهرم إلى أسفله، على المستويين البيروقراطية الحكومية، والمواطنين وسلوكياتهم، وقد طرحت حرب لبنان في هذا السياق إشكاليتين رئيسيتين، يقول المؤلف: الأولى: مسألة تحول لبنان إلى دولة حديثة في ظل نظام طائفي سياسي يقوم على التنازع على السلطة بين الطوائف. الثانية: كيفية إعادة بناء الدولة اللبنانية على أساس دولة تصنع قرارها بنفسها، في ظل قوى سياسية وميليشياوية داخلية وقوى إقليمية استولت على هذا القرار، ولا تزال هاتان الإشكاليتان مطروحتين إلى اليوم.

الكتاب درس في مجلديه حالة المجتمع اللبناني في زمن الحرب من خلال ثلاثة عشرة مدخلاً وعشرات التساؤلات، منها:

- عوامل التفجير في الأزمة اللبنانية عشية عام 1975.
- عوامل التفجير الخارجية-محطات الانتحار- تداعي التعايش أطوائفي- اتفاق الطائف وانتهاء الحرب- اللامركزية الاقتصادية والإدارية والإعلامية والانقسام المناطقي- تردي الأوضاع الاقتصادية وانهيار مالية الدولة- انعكاس الأوضاع الاقتصادية والأمنية على المجتمع اللبناني- تأثير الأحداث في الأسرة اللبنانية وفي ثقافتها- التهجير والهجرة- انهيار التعليم- الحراك العمودي للقوى الحزبية والميليشياوية- دور الجمعيات والمؤسسات والمنظمات اللبنانية والدولية في تأمين صمود المجتمع المدني- الخ...

ويرى الباحث أن تاريخ لبنان خلال سنوات الحرب الأليمة التي عصفت به بين عامي 1975-1990، تجيز حدوث تحولات جذرية ونوعية، شملت مجتمعه وبنيته وتعايش طوائفه الدينية، وسلوكيات مواطنيه وثقافتهم السياسية معارفهم وأنماط عيشهم، خلال أطول نزاع داخلي في تاريخه الحديث والمعاصر. وقد تسببت الحرب في تفكيك الدولة اللبنانية من ناحية تقليص سيادتها على أرضها وسلطتها على شعبيها، وانهيار مؤسساتها وماليتها، وإلحاق الأضرار بالاقتصاد الوطني، والقضاء على مركزية السوق الداخلية، وصعود قوى اجتماعية، هي الميليشيات وقوى الأمر الواقع، التي استطاعت أن تهمش دور الدولة وتعطل قرارها، وتستحوذ على إيراداتها، وتضع أيديها على مؤسساتها وإداراتها، وشهدت هذه المرحلة تصدّع المجتمع اللبناني، من خلال ما طرأ من انقسام بين بنيه، على أسس طائفية وسياسية وثقافية ومناطقية، وانعدام التواصل في ما بينهم، فضلاً عن سياسات التهجير القسري والهجرة، والتأثر بقيم الحرب وثقافتها وتداعياتها على التربية والتكوين المعرفي، كما تأثر المجتمع اللبناني بالأحداث الأمنية وتصدّع آليات الاستجابة للأوضاع الاقتصادية والقدرة على الرفض، بعدما جرى من تهميش لدور مؤسسات المجتمع المدني، وقد سارت عملية تفكيك الدولة جنباً إلى جنب مع عملية تصديع المجتمع اللبناني، فكانت النتيجة انهياراً شبه تام على الصعيد السياسية والثقافية والمعرفية والقيمية.

في فصوله العديدة يطرح كتاب "حرب لبنان" عوامل التفجير الداخلية، خلفيات وأسباب، عوامل التفجير الخارجية والسياسات الإقليمية والدولية، محطات الانتحار: من اندلاع الحرب إلى إلغاء اتفاق 17 أيار 1983، حروب الميليشيات والصراع على القرار، سقوط التعايش أطوائفي، الميثاق والحياة المشتركة، الحوار في ظل المدفع (1975-1987) مواقف الأطراف المحلية ومشاريع الحل. السياسات العربية والدولية، المواقف والمبادرات لحل الأزمة اللبنانية (1975-1988)، اتفاق الطائف وسقوط الجنرال عون (1989-1990)، اللامركزية الاقتصادية والانشطار المناطقي والإداري والإعلامي

وتداعياته، الاقتصاد اللبناني في دوامة الحرب.. سيرورات التكيف مع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية، آثار الحرب على الأسرة اللبنانية وفي الثقافة والقيم، انهيار التعليم: العلم (نورن)، الهجرة والتهجير والديمقراطية المستجدة، عصر الميليشيات، تفكيك الدولة وتقويض المجتمع، الأنشطة الاجتماعية والإنسانية للإدارات الحزبية ومؤسسات المجتمع المدني والهيئات الدولية، وقد أبان الكتاب وفق المؤلف أن حالة التعايش الطائفي في لبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر، مروراً بتأسيس "دولة لبنان الكبير" وعهد الاستقلال، وصولاً إلى الحرب التي اندلعت بين عامي (1975-1990) قد راوحت ما بين حدي النزاع والوفاق، وأن ديمقراطية لبنان التوافقية لم تنقل لبنان إلى حالة "عيش مشترك" أو "عيش واحد" حقيقيين، أو تشكل صماماً أمان في وجه انزلاق المجتمع اللبناني إلى حالة النزاع، وهذا يعود إلى استمرار النظام الطائفي السياسي على حاله، وبقاء الثقافة والهوية محددين للصراع الطائفي، وعدم حصول اندماج مجتمعي حقيقي يصهر اللبنانيين، وأخيراً خضوع لبنان لتجاذبات الجغرافيا السياسية والصراع العربي-الإسرائيلي. وبدلاً من أن يؤدي إرساء "العيش المشترك" الجديد وفق "اتفاق الطائف" والدستور اللبناني المعدل، إلى تسوية بين المطالب المتعددة والمتناقضة للطوائف اللبنانية، وإنهاء عقدة الخوف عند المسيحيين، وعقدة الغبن عند المسلمين، وإقامة علاقات اجتماعية وسياسية بين الفريقين على أساس من التوازن العادل، أدى الإحباط نتيجة المحق وغير المحق، وانتقاله من طائفة إلى أخرى، كلما عجزت هذه أو تلك عن تحقيق مصالحها، إلى بقاء الهواجس المعلنة والخفية، بحيث باتت ثقافة الخوف والتخويف تفعل فعلها في العلاقات الاجتماعية والسياسية بين الطوائف، حتى الاقتصادية. فمنع كل هذا عملية تحول لبنان إلى دولة حديثة، وفق ما كان يطمح إليه معظم اللبنانيين.

واستناداً إلى أن حرب لبنان كانت مرآة المجتمع اللبناني، وانفجاراً من أعماق كل فرد فيه، قبل أن تكون قنبلة أو قذيفة مدفع أو سيارة مفخخة؛ ولأن تلك المرحلة امتلأت بالتناقضات: الحرب والسلام، الحب والكرهية، الفرح والحزن، الموت والحياة، الضوضاء والسكون، البراءة والشر، يقول المؤلف: سيد كل ما نفسه بشكل أو بآخر في هذا الكتاب.

- المحرضون على الحرب والتقاتل، وعلى شطر المجتمع المدني، وضرب الاقتصاد الوطني.
- الزعماء السياسيون والدينيون اللبنانيون الذين اختلّفوا على نظام بلدهم وهويته، وحاول كل منهم تغييرها على طريقته الخاصة، إلى درجة تدميره والاستعانة بالخارج لإنجاز هذه المهمة، إلى أن جاءهم الحل معلباً من الخارج في عام 1989.

- الفئات الاجتماعية التي انعكست ثقافتها الثقافية وخصوصياتها على بنية النظام السياسي.
- زعماء الميليشيات الذين اغتالوا الدولة عبر سلبها شرعيتها ومكامن قوتها ودورها ومواردها. وبتروا رجليها كي لا تنهض من جديد. ولم يقفوا أمام العدالة لمحاكمتهم على ما ارتكبه من فظائع، حتى طلب الصفح من الوطن، بالإضافة إلى أفراد تنظيماتهم الذين استباحوا المجتمع المدني وقوضوه، وأرهبوا الناس بقيمهم وسلوكياتهم الجديدة قبل أسلحتهم الفتاكة.

- القتلة والمرترقة المأجورون، الذين ذبحوا الناس وقتلوهم عشوائياً بوساطة الصواريخ والراجمات والسيارات المفخخة، أو بالقنص عند مفارق الطرقات وزوايا الشوارع ومحطات الوقود وأمام الأفران.

- رجال الدفاع المدني من كل الطوائف والأحزاب والجمعيات الذين حملوا راية الإنقاذ والإغاثة ومساعدة المدنيين، مضحين بأرواحهم احترافاً واختناقاً أو تحت الأنقاض.

- الأكثرية الخائفة التي وقفت تتفرج على عملية تقويضها مسجلة لحظات "انتفاضة" من وسط ركام الخوف والموت.

- الزوجة التي ترملت، والطفل الذي تيمّم، والأسرة التي سقطت في آتون التضخم وفقدت معيّلها، واضمحلّت قدرتها الشرائية.

- الطبقة الوسطى، القاعدة الأولى الأساسية في البناء الاجتماعي، والقيادة الفكرية والسياسية في الوطن، التي أجبرتها الأحداث على التراجع والتخلي التدريجي عن دورها فهدمت أو غيبت أو هجرت.
- الفقراء الذين ازدادوا بؤساً، وتحولوا إلى متسولين للمساعدات الدولية.
- المعرفة التي انهارت وأفسحت مكانها للجهل والتجهيل والانغلاق والانعزال.
- القوى الخارجية التي استغلت التناقضات والخلافات الداخلية بين اللبنانيين لتمرير مخططاتها التي فاقت حجم هذا البلد الصغير وخلافات بنيه.

سألنا الدكتور عبد الرؤوف سنو على هامش قراءة كتابه: ألا ترى أننا في توجه نحو الحرب من جديد؟

- العوامل ما زالت موجودة، وأولها النظام الطائفي السياسي الذي يجعلنا دائماً كمجتمع (متخلفين) سياسياً وطائفيًا، وكعامل آخر ما زال موجوداً هو العامل الخارجي الذي ما زال يتدخل في لبنان ويجد في اللبنانيين أدوات له، وإذا أزلنا الطائفية السياسية نستطيع أن نوجد مجتمعاً متماسكاً وقوىً سياسية قوية تستطيع أن تنصدر للخارج، فلبنان يعيش بين دولتين (سوريا وإسرائيل)، وإذا كان المجتمع ضعيفاً وأيضاً الدولة لا يمكن لهما مواجهة هاتين الدولتين. هذه العوامل إذاً ما زالت موجودة، وأيضاً انقسام اللبنانيين حول الخارج.. ولبنان لا يمكن له أن يحصن نفسه ويتصدى لسلبات الجغرافيا السياسية طالما هذا النظام الاجتماعي ما يزال موجوداً.

• ما هي أهمية الكتاب؟

- لغاية الآن وبكل تواضع أقولها، لم يكتب مثيلاً له بشكل متكامل، فهو أضاء على الأوضاع الاجتماعية كالزواج والطلاق وسلوك الإنجاب، كما أني تطرقت لعلاقة أفراد الأسرة مع بعضهم، المرأة، الابن الميليشياوي، إضافة إلى ثقافة الميليشيات التي توزعت على كل المجتمع.

• من هو المخوّل كتابة التاريخ؟

- عادة المؤرخ، ولكن هذه ليست قاعدة، ربما شخص معين عاش في بلد، وعاش واقعه بشكل عام، المؤرخ يكتب، إنما من تتوافر عنده المنهجية يستطيع الكتابة، أصبحنا الآن نستشرف من التاريخ، ونطل من خلاله على المستقبل.

• خلال كتابة "حرب لبنان" ماذا توقعت؟

- توقعت أننا نتجه إلى السلام، لكن للأسف لم يحصل ذلك، لأن الانقسام توسع، ربما كان ذلك إيجابياً لو تحول الانقسام في لبنان على أساس إيجاد حزبين معارضين، لكن هذا الاصطفاف الحالي يحمل طابع المذهبية والطائفية وأدى إلى قيام دولة لبنانية الطوائف أقوى منها، وأيضاً عدم قيام وطن. نحن قبائل وطوائف نتعايش على حيز جغرافي.

• لاحظت أنك تحمل حيناً ما إلى التاريخ العثماني، لماذا؟

- كما هو متعارف عليه، فتاريخنا الحديث من (1516 إلى 1918) يعتبر تاريخاً عثمانياً ونحن لا نستطيع كتابة تاريخ لبنان والمنطقة العربية، أو البلقان والأناضول، دون العودة إلى التاريخ العثماني، الحكم العثماني ترك أثراً كثيرة على الصعد الفكرية والثقافية والاجتماعية، والبعض يرى أن هذا الحكم كان سلبياً على المنطقة، أنا أرى عكس ذلك. أرى أن هذه الدولة التي عاشت ستة قرون وبقيت تحارب بذاتها أوروبا، عرفت كيف توثق وتحفظ وثائقها. وهذه أهم (حاجة) تركها العثمانيون، حيث أدركوا أهمية الوثيقة في دراسة تاريخهم. وهم رغم ضعفهم حموا المنطقة العربية من التدخل الأجنبي، واستطاعوا إعطاء مظلة حماية إسلامية للمنطقة، لكن منذ 1798 أي منذ حملة بونابرت الفرنسية على مصر، بدأت الأطماع بالمنطقة، من أجل ذلك أشعر بالحنين والرغبة في الكتابة عن هذه الحقبة.

• بالنسبة إلى حرب لبنان، هل كانت مختبراً للتاريخ؟

- اعتبرت حرب لبنان المختبر التاريخي والاجتماعي والسياسي لتناقضات المجتمع اللبناني التي سبقت تقاتل بنيه، وتجلت في النظام السياسي وما يقدمه من مكاسب وفوائد لطائفة على أخرى. وحدثت في إطار صراع داخلي بين اللبنانيين أنفسهم حول المسار التاريخي الذي كان على وطنهم أن يأخذ به في مرحلة تاريخية دقيقة أنت في سياق النزاع العربي-الإسرائيلي، وتحول المنظمات الفلسطينية الموجودة على أرضه إلى عامل مؤثر وفاعل في خلق التجاذبات الطائفية بين اللبنانيين، فضلاً عن تعاضد الخلافات بين الأنظمة العربية وتدخلها مع القوى الإقليمية والدولية في الأزمة اللبنانية.

• لماذا أطلقتكم صفة "حرب لبنان" على كتابكم؟

- إن إطلاق صفة "حرب لبنان" على مرحلة النزاع بين عامي 1975 و1990، وليس "الحرب الأهلية اللبنانية"، أو "الحرب اللبنانية" أو "حروب الآخرين على أرض لبنان" هو في رأينا، الأكثر صحة علمياً وموضوعياً، لأن هذه الحرب لم تكن في كثير من مراحلها صراعاً داخلياً صرفاً بين اللبنانيين، لقد استطاع العامل الخارجي (الفلسطيني-الإسرائيلي-السوري-العربي-الإيراني-الدولي) أن يستغل تناقضات المجتمع اللبناني وضعف تماسكه، وانعدام سيطرة الدولة عليه والإمساك به، وهشاشة بنائه المؤسساتية والسياسية، للتلاعب بالتوازنات الداخلية في سبيل تحقيق مصالحه. وفي هذا السياق، كان يتم اصطناع وسائل الاضطراب الداخلي أو تغذيته (خلافات سياسية، حملات إعلامية، إغداق الأسلحة والأموال على فرقاء النزاع، رعاية إطلاق النار وأعمال العنف والختف والقتل، الخ... لتأجيج عوامل النزاع بين اللبنانيين.

• ما هي المعاني التي حملتها هذه الحرب؟

علاوة على خلفياتها ومسبباتها وأبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، فقد حملت هذه المرحلة المصيرية من تاريخ الوطن أكثر من معنى:

- طرحت شرعية الكيان اللبناني، ومدى ولاء اللبنانيين لهذا الوطن المسمى "لبنان" ..
- كانت صراعاً سياسياً واجتماعياً وعسكرياً بين المناطق، وبين الطوائف وداخل الطوائف.

- كانت فترة زمنية سيطرت فيها أنماط جديدة من الثقافة والتفكير المناطقي والطائفي والعلاقات والقواعد الاجتماعية بشكل مختلف عما كان عليه الوضع قبل عام 1975.
- تسببت في تعطيل سلطة الدولة وسيادتها وشلّ مؤسساتها وابتلاع مجتمعا المدني من قبل الميليشيات وقوى الأمر الواقع.
- شكلت إطاراً زمنياً ومكانياً لمرحلة تاريخية- اجتماعية امتلأت بالتغيير وبالسلبيات أكثر من الإيجابيات.

• ما هي الغاية من إصدار "حرب لبنان" الآن؟

- لم تكن الغاية من إصدار "حرب لبنان" الذي استغرق العمل عليه أكثر من عشر سنوات، هي استحضار ما حملته هذه الحرب، من أحقاد دفيئة وذكريات أليمة وآثار مريرة، وهواجس لم تخدم في نفوسنا بعد، ولا إلقاء التهم جزافاً، أو نبش الماضي، وفتح ملفاته والدعوة إلى المساءلة وتحديد المسؤولية، أو إلقاء الضوء على بطولات حقيقية أو زائفة هنا وهناك، وإضفاء صفات الوطنية أو الخيانة على هذا وذاك، وتحميل نظام لبنان مسؤولية ما فعلته يداه وأيدي الآخرين، وإنما القيام بقراءة عقلية واعية لمعرفة جذور الحرب وأسبابها، وكيفية نشوئها، وتفاعلاتها، وتداعياتها وتطوراتها، ومساراتها وخواتيمها، واستعادة هذه التجربة الاجتماعية- السياسية- السلوكية- المعرفية في ذاكرتنا، واستيعاب دروسها وعبرها، وعدم طمسها، كي لا يؤدي نسيان ويلاتها وأضرارها إلى تكرارها وإعادة إنتاجها من جديد، فعلياً إذاً، أن ننعش ذاكرة أجيالنا الصاعدة بأن تقاتل أبناء الوطن الواحد يجر إلى الخراب والمآسي على البلاد، فيما يؤدي الحوار المنطقي بينهم إلى التغلب على كل الصعاب: لقد اندلعت الحرب في لبنان عام 1975، تحت شعارات التغيير والإصلاح، ثم تحولت إلى حرب من أجل الحرب (القتل والخطف والاعتقال والسرقة والنهب وترويع المواطنين، الخ...).

• ما هي الإشكالية التي طرحتها حرب لبنان؟

- طرحت حرب لبنان بين عامي 1975- 1990 إشكاليتين رئيسيتين: الأولى، تحول لبنان إلى دولة حديثة في ظل نظام تتنازع فيه الطوائف على السلطة وعلى المناصب وعلى الإنماء المتوازن، وتختلف على هويته، أما الثانية، فكانت إعادة بناء الدولة اللبنانية ومؤسساتها على أساس دولة سيادية تصنع قرارها بنفسها، في ظل قوى سياسية وميليشياوية وقوى خارجية استولت على هذا القرار وقوضت أسس قيام الدولة.